الطباق

الأستاذ الدكتور

السعيد محمد عبد الحي الشافعي

أستاذ البلاغة والنقد جامعة الأزهر
وعميد كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنين بدمياط الجديدة

المقدمة

أحمد رب الأرض والسماء، وأصلي وأسلم على سيد الأنبياء، سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ـ الذين نهلوا من معين القرآن والسنة؛ فكانوا للبيان خير سفراء.

وبعد:

فمن أجلِّ العلوم وأكرمها على الدرس العربي والشرعي علم البلاغة، وحسبه علو شأن أنه تفرد بالوصول إلى عظمة القرآن، وعظمة البيان النبوي؛ للغوص في أعماق ما به من نكات وأسرار، كما تخصص في التعرف على ما في روائع العرب من كنوز شرقت وغربت بها في كل مناحي البيان، فطرقوا باب بلاغة أعجزت الأمم والحضارات.

ومن عُمُدِ هذا العلم: علم البديع الذي قال عنه القزويني في مقدمة الإيضاح:

"أما بعد: فهذا الكتاب في علم البلاغة وتوابعها" وقد علق الدكتور خفاجي على هذه العبارة بقوله: "وتوابعها" هو علم البديع، والكلام في السرقات الشعرية.[1]

(1) انظر الإيضاح شرح وتعليق د/ خفاجي ص ١٦.

وأغلب الظن أن شيخنا القزويني لم يدر بخلده ضعة هذا العلم، لكن العبارة تفرض على المشتغلين به أن يثبتوا بين الحين والآخر قدره ومكانته حتى لا ينظر إليه باحث، أو دارس بعين الصغار والمهانة، ومن ثَمَّ فقد رُحتُ أتأمل في هذا العمل رؤية ذاتية لبعض موضوعات هذا العلم، وبخاصة الطباق؛ لأثبت للدارس أن هذه المحسنات لها جلالها، ولها دورها في السياق الذي يستحق منا ألا نجمد عند حدود القاعدة، بل علينا أن نتعمق الفهم بقراءة ذاتية للفن وشواهده، ونتأمل أن نجمع فيها بين عبق الماضي، ورؤية الحاضر التي تضيف شيئا نثبت فيه أن الطباق وغيره من ألوان البديع لها دور ذاتي في السياق لا يقل منزلة عن رفاقه من أبواب مباحث المعاني والبيان.

هذا وقد اكتفيت بالطباق كأنموذج للدارسين، والله أسأل العون والسند لمعالجة غيره؛ ليكمل النفع.

وقد وقعت المعالجة في مقدمة، وتمهيد، ورؤية ذاتية للطباق، والله المستعان، وعليه وحده التكلان.

التمهيد

التمهيد

علوم البلاغة عامة، والبديع خاصة لا ينكر قدرها إلا مدخول في عقله، ومن ثم فقد أطربني قول المراغي:

" موضوع علوم البلاغة من علوم العربية موضع الرأس من الإنسان، أو اليتيمة من قلائد العقيان، فهي مستودع سرها، ومظهر جلالها، فلا فضيلة لكلام على كلام إلا بما يحويه من لطائفها، ويودع فيها من مزاياها وخصائصها، ولا تبرير لمتكلم على آخر إلا بما يحويه من وشيها، ويلفظه من درها، وينفثه من سحرها، ويجنيه من يانع ثمارها.

مما تقدم تعلم جليل خطرها، وعظيم منزلتها، وأنها لا تدانيها منزلة علم آخر من علوم العربية، وحسبها شرفا وعظمة أننا نعرف بها إعجاز القرآن الكريم، وندرك ما فيه من خصائص البيان"[١].

وقد دفعني ما قيل عن هذا العلم أن أقلب في صفحات واحد من علومه، وهو علم البديع من خلال رؤية ذاتية للطباق؛ لأنه عمود الأمر، وباب هذا العلم، وكنت حريصا في المعالجة على أن أخلع عليه ثوب رؤيتي التي حاولت فيها المحافظة على روح قاعدتي، وعلى عمق إطلالة أثبت فيها

(١) علوم البلاغة للمراغي ص ٧.

أن للبديع عامة، وللطباق خاصة دورا رئيسا، وهدفا مجيدا يفوق كونه يُحسِّن اللفظة ويزينها، ليؤدي رسالة من خلال سياقه، يستوي في ذلك دوره في البيان القرآني، والنبوي، والعربي في الدلالة على شموخ الهدف، وسمو المقصد في كل سياق.

الطباق بين القاعدة البلاغية، والرؤية الذاتية

لكل شيء أركانه الأساسية، ودعائمه الأصلية، والطباق ـ بحق ـ يعد ركنا أساسيا في عالم المحسنات البديعية، بل لا نُعَدُّ من المبالغين إذا قلنا: إنه من العُمُد الرئيسة لهذا الفن الذي لا يستطيع عالم مشتغل بالتأصيل لهذا العلم أن يمر دون أن يلقي عليه تحية وسلاما؛ وما ذلك إلا لأنه صاحب دور كبير في البناء التركيبي للجملة، أو للعبارة البلاغية، ومن هنا يقتسم التعبير والدلالة على الموضوع مع غيره من مباحث علم المعاني والبيان، بل كان ندا قويا، وخصما عنيدا أثبت كفاءة عالية لا تقل عن كفاءة أنداده الممثلين للعلمين السابقين.

وقد سجل هذا اللون البديعي (الطباق) نتائج أسلوبية وفكرية عالية المستوى، عظيمة الدلالة، وخير شاهد على ذلك شعرنا العربي العامر بالفنون البلاغية التي كان منها: علم البديع، وعلى رأس فنونه (الطباق)

بقوته وفتوته الدلالية المصورة لأعظم المعاني، وأكرم الموضوعات؛ لتعلن عن المعنى المنشود من السياق كله.

كما وظفه كتاب الله الخالد لفكرته المقصودة من كل لفظة، أو آية أو جملة أو مشهد، فأداها ووفاها حقها بطريقة تحرك العقل وتنشطه، وتجعله يتأمل ويناقش ويقارن، ويستطيع بهذا الأداء الحركي للكلمات التي تأخذ القارئ من أرض إلى أرض، ومن ظل إلى ظل، ومن جو إلى جو، ومن عالم إلى عالم، حتى إنك تضحك وتبكي معه في آن واحد، وتسكن الأرض، وتصعد السماء في لحظة واحدة، وتلك قمة لا يقوى عليها إلا هذا الأسلوب الغني بدلالة ألفاظه على المعنى المراد بقوة يلحظها المتأمل، خاصة إذا تخيل الضدية بين كلمتين، ووضع كل واحدة منهما في كِفة لتتضح الدلالة في أنصع صورها، وأبهى حللها.

هذا وقد وظفه القرآن الكريم لقضاياه المتعددة والمتباينة، فلم يترك فكرة إلا طوعه لها، ووظفه للقيام بمهام توصيلها إلى المتلقي، وللناظر أن يتخيل بلاغة الطباق القرآني في حديثه عن المؤمنين الصادقين، أو عن الكفار المعاندين، وغير ذلك من القضايا التي ترسخ عقيدة المؤمن في عقله وقلبه كقضية الرزق التي تشغل بال المسلمين، وتجعلهم يرسبون أمام اختباراها،

ومن ثم فقد راح الحق ـ سبحانه ـ في كتابه العزيز يعالج هذا الأمر بإيمانية عالية تغرس في نفس كل مسلم الطمأنينة على أي شيء قدري كتبه الله عز وجل، وخطه بقلم قدرته الذي أحاط بكل شيء علما، وللقارئ أن يقرأ ما قيل بهذا الصدد في سورة آل عمران[1]، وذلك قاطن بقوله تعالى ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

عطاء المعاني التي تفتقت وتولدت من الطباق الماثل في الآية السابقة فوق أن يتخيله بشر، وللقارئ أن يراقب ويتأمل الضدية اللفظية والمعنوية، وما أوحت وتوحي به من معان جسدت مراد الله ـ عز وجل ـ على أتم صورة، وأوفى برهان، وذلك بين تؤتي وتنزع، وبين تعز وتذل، وكذلك بين الليل والنهار، والحي والمميت.

حقا إنها ثنائية واسعة الدلالة بينة المراد، وهو السيطرة الكاملة من الحق ــ سبحانه ـ في هذه الحياة على كل ما يتعلق بالخلق من إيجاد من العدم،

(١) آية ٢٦ و ٢٧

وكفالة رزق، وعز وذل، وتغيير في ليل يعقبه نهار، ونهار يعقبه ليل، وحي يخرج من ميت، وميت يخرج من حي، كل هذه الأمور عرضها الطباق، وحبسها وقصرها على ذات واحدة هي ذات الله ـ عز وجل ـ المسيطرة المالكة لهذا الملك بأرضه وسمائه، وبكل عوالمه.

هذا ولم يكن البديع مجسدا في الطباق هو الراسم وحده لإطار المعنى، ولكن تعاونت وفي الجمل ذاتها والكلمات التي وظفت للطباق مباحث بلاغية أخرى، كالوصل بين الجمل[1]؛ للتوسط بين الكمالين مع مراعاة أنه جاء على أتم صورة، وذلك للتوحيد بين الجمل في الأفعال المضارعية التي دلت على تجدد مدلولاتها حتى لا تكون الأفعال مقصورة على فرد دون آخر، ولا على زمن دون زمن، وهذه هي الغاية التي من أجلها كان الطباق.

إذن تختلف المباحث، وتتعدد العلوم، ولكنها تلتقي في قناة واحدة، وتصب في هدف واحد، تسعى إليه، وتخطط للوصول إلى أرضه ومكانه.

هذا ويسير الحديث القدسي على الدرب ذاته، فيؤكد قضية الرزق من خلال قالب الطباق التعبيري، صاحب الجرس القوي الذي يريح القلب، وينزل على روح المؤمن أمنا وأمانا على ما قدر له عند الله ـ عز وجل ـ، وهذا

(١) راجع السعد (٣/١٨).

قوله جل شأنه: «يا ابن آدم خلقت السماوات السبع والأراضين السبع ولم أعيى بخلقهن أيعييني رغيف عيش أسوقه لك، يا ابن آدم ضمنت لك الرزق فلا تتعب، يا ابن آدم لا تطالبني برزق غد كما لا أطالبك بعمل غد، واعلم أني لا أنسى من عصاني فكيف أنسى من أطاعني، وأنا على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط»[1].

من ينعم النظر في بلاغة هذا الهدي الكريم يرى أن عناصر البلاغة التي وُظفت لغرض معانيه كثيرة ومتعددة.

وقد كان للبديع فيها دور رئيس، خاصة الطباق الذي رسخ العقيدة ومكنها في نفوس المسلمين، ونصب بينهم وبين الشك حاجزا، وأثبت أن كل مختبر في هذا الأمر ينبغي أن يفوز وينجح؛ لأن الضامن والكفيل هو الله، ولك أيها الناظر أن تقف قليلا أمام الضدية الفكرية المصورة لهذه المعاني في قوله: «واعلم أني لا أنسى من عصاني، فكيف أنسى من أطاعني».

بعد هذا ينبغي على المسلم أن يسلم لله بطلاقة قدرته، وإحاطته بكل شيء في ملكه؛ لتقوى عقيدته، ويرسخ إيمانه، خاصة وأنه سبحانه استهل

---

(1) تفسير ابن كثير (٤٢٦/٧)، وتفسير الشيخ الشعراوي جزء١ باب٩٠ ص٤٢٧٥، والتفسير المنير للدكتور/ وهبة الزحيلي ج٢ ص ١٣٣٥.

العبارة بقوله «واعلم» وهي لفظة قاطعة بالعلم والإحاطة والإدراك لكل شيء.

وقد صدرت الصورة بطباق وافق طباق العجز، وذلك كائن بين السماوات والأراضين، وهذه الصورة العقلية للطباق سبقت بحرف النداء المنشط للعقل، المحرك للذهن، كما ذيلت بقوله ـ سبحانه ـ: «ولم أعيى بخلقهن، أيعييني رغيف عيش أسوقه لك؟».

هذا والعبارة التذييلية استضافت من فنون البلاغة الخاضعة لعلم المعاني: الاستفهام، كما استضافت من مباحث البيان: كناية كريمة أشارت إلى ضمان الحق ـ سبحانه ـ لأرزاق العباد والخلائق، وهذان اللونان وردا في سياق كان عمدته في الكلام (الطباق) الكائن بين السماء والأرض، وضديته قوية الدلالة، تثير في النفس إحساسا بسيطرة الخالق على أعظم مخلوقاته، ثم تسلمها إلى الاستفهام والكناية؛ لأنهما قاما بدور كبير في دعم صورة الطباق، وترسيخها في الأذهان، ومن ثم كان الطباق في تلكم الصورة كبيت أحكم بناؤه؛ لأنه سيطر على ألفاظه ومعانيه في صدره وعجزه، واستعان ببعض الفنون الأخرى؛ لتأكيد قضيته الام، وهي سيطرته ـ سبحانه ـ على ملكه، وضمان أرزاق عباده.

وهكذا هدانا البحث والتنقيب إلى حقيقة باتت واضحة، وهي أن أسلوب الطباق يسيطر على قضيته سيطرة عامة من خلال ألفاظه التي تأتي محكمة الخلق، مستوعبة لمعانيها بطريقة توحي للمتأمل بحسم اللفظ في الدلالة على معناه المنشود، ومن ثم كانت هذه الخاصية من السمات الواضحة المميزة لأسلوب الطباق الذي لا ينزل أي أرض؛ لأنه يؤثر أرضا ذات معان تحتاج إلى قطع في قصيتها، أو إلى بت في أمرها.

وكما حسم بالطباق قضية الرزق، يحسم به قضية أخرى، وهي منبثقة من القضية السابقة، وهي الإحاطة الشاملة، والسيطرة الكاملة على أبناء ملكه في كل ما يتعلق بهم من ضحك وبكاء وموت وحياة، وخلق للذكر والأنثى؛ وإحاطة بالغنى والفقر، وهذا قوله في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾[1].

من يتريث في إطلالته لهذا المشهد القرآني الخالد يتأكد من أمرين أساسيين:

(1) سورة النجم، الآيات من ٤٣ إلى ٤٨.

الأول: سيطرة الطباق على ألفاظه ومعانيه، وهي خاصية تميزه وترفعه على كثير من أبناء جنسه.

الثاني: تروح القضايا وتغدو، وتشرق وتغرب، وتتباين في السياق الواحد، ومع ذلك يعرضها الطباق بإحكام شديد تنتقى فيه الألفاظ للمعاني انتقاء خاصا يقوم على ملائمة كل منهما للآخر، كما يقوم على ملائمة كل هذه الصور الكلية التي كان فارسها: الطباق الذي عرض الضدية بصورة ناصعة، تجعل الأمر واضحا في عقل المتأمل والمتذوق وضوح النجوم في صفحة السماء المظلمة، وتلك هي عظمة هذا الأسلوب، وللناظر أن يضع في مخيلته دنيا التوائم الواردة بالآيات، وهي حسب ورودها في الآيات: أضحك، وأبكى، وأمات، وأحيا، والذكر، والأنثى، والغنى، والفقر.

إنها لوحة متكاملة وظف فيها الطباق لإبراز قضاياه، وتوضيح فكرته، وتجلية مراده من خلال الآتي: اللفظ، والظل، والجرس، والموسيقى، وقبل ذلك وبعده: المعنى المنشود من هذه المنظومة.

وقد التقت هذه الدوائر، وتلك العناصر من خلال عمدة الحدث (الطباق) فأعطت العقل مساحة من التأمل والتدبر لهذه الضدية القاطنة بين

الكلمات، كما فتحت له كوة من الخيال عندما يضع كل لفظة مع ما يقابلها في مخيلته؛ ليخرج بقضيته الأم التي جاء من أجلها هذا السياق، وهي دلالته على سيطرة الخالق الكاملة على أفراد ملكه بالأغيار التي تناسبهم، وهذا ما وضح جليا بين كل لفظة وأخرى، ومن ثم يخرج الناظر للسياق بحقيقة تجعل هذه المعاني في حوزة المكون ـ سبحانه ـ، وعندئذ لا يقوى عليه شيطان، ولا يؤثر فيه هوى؛ لأنه تقبل رسالة القرآن، واستوعبها من خلال هذه الصورة العظيمة التي جمعت بين معانٍ لا يقوى عليها إلا إله قاهر.

وقد اختيرت الألفاظ بما يعزز قهره ـ سبحانه ـ، وللعقل أن يمعن فكره في مجيء القضايا على هذه الصيغة (أضحك – أبكى – أمات – أحيا – أغنى – أقنى) كلها أفعال وردت على هيئة واحدة بموسيقى واحدة؛ فأفادت حسمه وإبرامه لهذه القضايا أزلا قبل خلقه للخلق.

وقد شذ عن ألفاظ الطباق في الصورة عن الشكل السابق قوله: الذكر والأنثى، لأنهما جاءا من قبيل الأسماء؛ للتأكيد على أن بقاء النوع المُنفَذ فيه الأفعال السابقة باق ما بقي خلق الله لهذا النوع الذي يعمر به هذا الكون، الدال على عظمة مكونه ـ سبحانه جل شأنه ـ، وعلى كلٍ فقد عول المشهد على الأفعال والأسماء؛ لرسم هذه اللوحة المتكاملة.

ومن روائع شعرنا العربي نطقا بعظمة الطباق، ودلالة على روعة سياقه الذي يجمع بين الأضداد؛ ليؤلف بيتا دعائمه الطباق، حتى إن القارئ يحس وكأنه أمام بيت أحكم بناؤه من شواهد ذلك قول الجاهلي الماهر بالصحراء والطبيعة "امرؤ القيس":

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

يشير فارس العربية إلى أن فرسه مكر إذا أريد به الكر، ومفر إذا أريد منه إدباره، وقوله (معا) يعني أن الكر والفر والإقبال والإدبار مجتمعة في قوته، لا في فعله، لأن فيها تضادا، ثم شبهه في سرعة فره، وصلابة خلقه بحجر عظيم ألقاه السيل من مكان عالٍ إلى حضيض.(١)

لا يتأمل منصف للبيت السابق إلا ويدرك أنه أمام لوحة بلاغية رسمها فنان قدير موهوب، مطبوع بريشته العظيمة التي كانت خير دليل على علو الكعب العربي في توظيف الطباق لما وقعت عليه العين، أو لما كان يدور بالخلد، ومن ثم فقد عول شاعرنا على ألفاظ حاكت طبيعته، وبلغت رسالته عن فرسه، وهي ألفاظ تنعم بالحركة والقوة، سواء على مستوى حروفها، أو على مستوى موسيقاها، وما الكر والفر والإقبال والإدبار من متذوق

(١) شرح المعلقات السبع للإمام عبدالله الحسن بن أحمد الزوزني ص ٤٣،٤٤.

الطباق ببعيد، وقد عزز فارس الجاهلية الطباق بالتشبيه، وفي هـذا مـا يـدل على أن هدفه الرئيس: بثه من خلال الطباق الذي وظف التشبيه لخدمته.

وقد عد البلاغيون هذه الصورة من قبيل الصور السهلة الممتنعة في باب التشـبيهات المركبـة التـي تقـع في الهيئـات المركبـة المحسوسـة المصـحوبة بالحركة[١]، والكلام السابق أصاب هدف الصورة؛ لأن شـاعرنا صـور مـا كان بأم رأسه، أو ما كان بخلده بتركيبة أسعفت مـراده، وحققـت النجـاح لصورته، وكتبت لها في عقل المتأمل قدرا كبيرا، وحققـت لهـا خلـودا أدبيـا يجعل من يقرؤها يحب أن يعيدها مرات ومرات على عقله، ولا يزيدها هـذا التكرار إلا رواجا وجمالا على ما ذهب إليه الشايب.[٢]

وما ذهب إليه هذا الناقد الكبير ينطبق تماما على صـورة امـرئ القـيس؛ لأنها حوت من البلاغة ـ كما بينـا ـ مـا يـدعو أي قـارئ للتأمـل والتـدبر، والتكرار الذي يحن إليه بـين وقـت وآخـر، لجـمال الصـورة التـي يحـب أن يكررها؛ ليستمتع بها، ويأنس إليها.

---

(١) انظر وراجع بغية الإيضاح في مبحث (المركب الحسي) (٣/٢٦).

(٢) أصول النقد الأدبي ص٢١.

المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- أصول النقد الأدبي.

٣- الإيضاح شرح وتعليق د/ خفاجي.

٤- بغية الإيضاح.

٥- تفسير ابن كثير.

٦- تفسير الشيخ الشعراوي.

٧- التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي.

٨- تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني.

٩- شرح المعلقات السبع للإمام الزوزني.

١٠- علوم البلاغة للمراغي.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٨٨٥
٢	التمهيد	٨٨٩
٣	الطباق بين القاعدة البلاغية، والرؤية الذاتية	٩٠٠